إلحاحك أعود عن قرارات كنت قد أعلنتها. بل لقد أحجمت حتى كادت سلطتي تتقلّص، وكان البلاط يصحو وينام على صوت الاستياء. وانبغى حسم الأمر، وكان ذلك واجبي الرئيسي والامتياز الذي أتمتّع به. وكان الواجب عليك أن تظلّ بقربي.

وكان صوته قد ارتفع أثناء هذه الكلمات الأخيرة قبل أن يعود إلى الانخفاض وكأنما بسبب الإعياء.

ـ أجل يا «ماني»، إنني لم أُصْغِ بما فيه الكفاية إليك قبل أن أنخرط في مواسم الحرب تلك، ولكنْ كان عليك مع هذا أن ترافقني في كل مرحلة من مراحل دربي، لأنني ربما كنت أصغيت إليك بشكل أفضل، في (أرمينيا) وأمام (أنطاكية)، وبفضلك كنتُ كبحتُ ولا شك حماسة «كرديز» المدمِّرة ومنعتُ الكهنة من اضطهاد سكان البلاد وإثارتهم علينا. وفي غيابك كان ولدي «هرمز» وجميع من اعتادوا الاستماع إليك من رجال الحاشية بُكْماً وكأنهم افتقدوا فيك أباً. وأنا كذلك أسفت على صوتك العادل المستقيم. اللعنة عليك يا «ماني»، أهكذا تُبدي عرفانك للذي طالما حماك ولا يزال يحميك بالرغم من خيانتك؟ لو كان غيرك من رعاياي قد تصرّف على هذا النحو، ولو كان شخص غيرك قد تلفّظ بعبارات التمرّد التي تنشرها في طول «الإمبراطورية» وعرضها لخَوْزَقْتُه! لماذا ينبغي أن أضعف على هذا النحو حين يتعلّق الأمر بك أيها الطبيب البابلي؟.

صمت وكأنّه فوجئ بما صدر عنه من سؤال، أو كأنّ غريباً هو الذي قد طرح عليه سؤالاً لم يكن قطّ قد فكّر فيه. وكان قد هزّ أعطافه. وكان قد تحدّاه. وابتدأ «ربما...». وتوقّف مرّة أخرى. قبل أن يستأنف بنبرة تتعمّد تقطيع الكلام.

ـ عندما يجلس المرء على هذا العرش فهناك دائماً بين آلاف الأنظار التي يلتقيها أو تتحاشاه نظرةٌ يكتشف فيها بأنّه ليس مُخَلَّداً. وهذه النظرة هي عندي نظرتك.